المقتطف

الجزء الخامس من المجلد العاشر بعد المئة

١ مايو سنة ١٩٤٧ — ١٦ جمادى الثاني سنة ١٣٦٦

وطننا الشرق

الساكت على الحق شيطان أخرس . صدق رسول الله .

وأشد ما يكون السكوت على الحق خطراً على مستقبل الأمم ، أن يروج زعماؤها بقولهم بأنها في سبيل النجاح وهي في الواقع في سبيل الانحلال والضعف .

خطأ أن تقاس عظمة الأمم بعدد الأفراد أو بالثروة أو بالأبنية والمعاهد ، إذا كانت نفوس الأفراد خراباً ، إلا من أوهام العظمة ، وخيالات القوة والقسوة ، وفتنة المظاهر المرئية ، ومن وراء جميع هذه المظاهر انحلال يشمل جميع المرافق ، وبخاصة إنحلال في العقلية وإنحلال في الفكر ، وإنحلال في الأخلاق .

حفنة من المقدونيين فتحوا العالم ، ودوّخوا الشرق برمّته في زمان الإسكندر المقدوني . ودوّخ هانيبال رومية العظمى بجيش خليط من القراطجة والغال والنوميديين وأهل إسبانيا ، وكاد يقضي على مجد الدولة الرومانية . وبضعة آلاف من العرب فتحوا الدنيا من سور الصين إلى بحر الظلمات . وفي العصر الحديث حكمت بريطانيا خمس العالم ، والإنجليز لا يجاوزون الأربعين مليوناً من الأنفس .

آية ذلك كله أن نفوساً عامرة تستعبد نفوساً خربة ، وأن أخلاقاً متماسكة تستقوى على أخلاق منحلة ، وعقولاً تفكر تخضع عقولاً جامدة ، وأذكاراً مثالية تستولي على الأرضيات .

وعض الشرقيين في هذا العصر الذي هو في أوائل عصور انقلاب حقيقي ، إنما تتطور الى الأصلح ، وإنما تقتدي بالمثل وتنتفع بالمثلات ، في حين أن العالم يجرنا وراءه جرًّا ويشدنا الى عجلته شدًّا ، كأننا الصخور لا تتحرك إلاَّ بالدفع القوي الشديد ، وكأننا المرتى يقلبهم الاحياء ، أو الذين تتلاعب بها الايدي ، أو الكرات تتدافعها سواعد الفرسان ، أو علامات صُمٌّ تحركها أيدي اللاعبين على رقعة الشطرنج .

ما أردت بهذا تسفيهاً ، ولا أردت به تثبيطاً للهمم ولا قتلاً للحوافز . وإنما أريد به أن أرفع عن الحقائق خمار الباطل ، وأن أفتح العيون على الوقائع كما هي كائنة ، لا كما تصورها لنا الأوهام . وفي هذا وحده تبدأ الحياة الأدبية وقوة الشعوب : إن أرادت الحياة واجهت الحق ومضت الى الحقيقة ، فقوت من قواها وحشدت من كامن عنفوانها ما تستقوي به على أسباب الضعف .

هذه فلسطين تأكلها الصهيونية ، وتنهبر على قتلها قوى اليهودية في أنحاء العالم ، ونحن نسبح في أحلام . يقول المسلمون منَّا أن أمة محمد بخير . ويقول النصارى إنَّ الأمر فيه . نعم أن أمة محمد بخير ما دامت تأكل وتشرب ، وإن أكلت التراب وشربت الكدر . ونعم مرة أخرى أن الأمر فيه ، ولكن أمر الله في هذه الدنيا مع الأقوياء ، لا مع المستذلين الخوارين ، الذين تتفجر في صدورهم قنابل الصهيونية ، وهم على صلواتهم عاكفون ، كأنما هذه الدنيا صلاة وصوم وزكاة ولا شيء غير هذا . وما كان الدين إلاَّ سبيلاً للقوة ، وما كانت العقيدة إلاَّ أداة الحرية والاستقلال والتنعم بغنائيات الحياة .

وهذا شمال أفريقية تدس بريطانيا في شرقيه أصبعها المسمومة ، وتضحك فرنسا على خدون أهل الجزائر وتونس ومراكش ، وتعمل على تفرقة هؤلاء العرب ، والعالم العربي كله واقف ينظر كأن هذه الدنيا لا تعنيه به ، وكأن أهل هذه البلاد من المريخ أو من زحل .

قطعت فرنسا بين أهل شمال أفريقية وبين العالم العربي كل صلة . فلا تدخل هناك مجلة أو كتاب أو صحيفة إلاَّ مهرَّبة ، كأن العقل العربي في غير تلك البلاد لا يُنتج الا سموماً تخشى فرنسا أن تسمم أهل المغرب الأقصى حنوًّا منها وعطفاً وإشفاقاً . ويدخل مصر ، قلب العالم العربي ، ثمانين صحيفة فرنسية كلها سمٌّ زعاف ، وكل دعايات سياسية وغير سياسية

وكلها فجور وإثم ، وإثارة للشهوات الخسيسة ، ونحن واقفون ننظر كأن الأمر لا يعنينا في شيء .

* * *

وفي مصر ، ومنها يتطرق الأثر إلى العالم العربي ، صحافة تمثل مناطق النفوذ الدولي في هذه البلاد ، ونمت في غيرها من أرجاء الشرق ، فهذه صحافة للدعاية الأمريكية رميناً بكل جائحة نكراء ، وداهية لبلاء ، من غائلات ما يلقي به الغرب في سلة المهملات ، فيصيب من أخلاقنا انحلالاً ، ومن عيوبنا ثروات ، وتلك صحف أخرى تروّج لفرنسا الغائبة الآثمة المعتدية على شرف العرب وحرية العرب ، تلك الدولة التي تحاول فرنسة شمال أفريقية وقتل العربية والاسلام في نفوس ناشئتها وجعلها ولايات فرنسية تمثل في برلمان فرنسا ، وتدين بأدب فرنسا ، وما تعدّ فرنسا من هذه البلاد إلا رجالاً تقودهم الى القتل في ميادين الحرب دفاعاً عن أرضها فيذهبون فدية لابنائها ، فيراق الدم العامي الذميم ، فداءً للدم اللاتيني الكريم ، وهذه انجلترا تتغلغل بدعايتها السامة في جسم الشرق فتنصر حزباً على حزب ، وطائفة على طائفة ، وتلعب بعقول أولاء وهؤلاء ، ومن وراء ذلك كله مصالح انجلترا لا تعرف في سبيلها ذمة ولا شرفاً ولا وفاء ، وتجد منا من يقولون إنهم شرفاء ، وإنهم معقولون ، وزاد الطين بلة أن هؤلاء الشرفاء المعقولين قد رموا الشرق بكل أفاق مجرم من أهل شرق أوربا الدائنين بالصهيونية وأسكنوهم فلسطين التي هي كبد الشرق ونور عينه المبصرة ، زاعمين أن هؤلاء القتلة السفاحين مظلومين مشرّدين ، فباسم الانسانية ينصفون ، ولكن بقطعة من أرض العرب وعلى حساب العرب . على أن هؤلاء إنما ينظرون إلى شرق الأردن باعتباره فلسطين الشرقية وإلى لبنان والشام باعتبارهما فلسطين الشمالية ، والى بلاد العرب والعراق ومصر باعتبارها مناطق النفوذ الصهيوني . ومع قيام كل هذه الحقائق التي تدمغ جبين أنق الناس للحق ، تحاول بريطانيا أن تثبت من أقدامهم ، وأن ترتق لهم في فلسطين ولو حلد ضباطها وخلق نضاتها جبرة من منصّة العدل في رائعة النهار ، ولو عجزت عن تنفيذ حكم الاعدام في مجرم قضت العدالة بأنه عضو فاسد في جسم الجماعة الانسانية ، وتقف مترددة بين أن تقدم وبين أن تحجم ، كأنما هذه الصهيونية جوّة صحيحة تكاد تبتلع من ؟ . . . تبتلع بريطانيا ؟ كلا ، وإنما هي

السياسة التقليدية ، سياسة الجور والعدوان والقوة الصارخ والأفك الموروث . سياسة شرق يأكل وغرب يأكل .

* * *

ليس كلامنا هذا محتاج الى دليل منطقي وقد دلت عليه الأدلة المادية تؤيده وتدفع عنه الشبهات . هو الحق الصارخ المدوّي : والصامت على الحق شيطان أخرس .

أنظر ماذا يقول الصهيونيون [1] .

« لا نقاتل في سبيل تحقيق حصة معينة من الهجرة اليهودية ، بل نرمي الى تحقيق الهدف التاريخي الذي تتوخاه أمتنا : وهو تحرير أرضنا من الحكم الأجنبي » .

١ — أصبح هؤلاء وطن يريدون تحريره من نير الحكم الاجنبي : بالطبع حكم العرب وحكم الانجليز . هل سمعتم أيها العرب بسفاهة تفوق هذه السفاهة . أو وقاحة تبلغ هذه الوقاحة ؟ أو رأيتم وحوشاً كواسر تود أن تلغ في دماء العرب ، أشد من هؤلاء افتراساً أو اسوأ أنهم لصوصية ؟

يقولون :

« إن صداقة الشعب البريطاني لأمتنا أسطورة تمزقت إرباً في هذا الجيل ولا سيما في أثناء إبادة ستة ملايين يهودي في أوربا .

٢ — الانجليز الذين عادوا العرب وقتلوا ثوارهم الحقة بكل سلاح دفاعاً عن اليهود وللصهيونيين قبيل الحرب الاخيرة ، الانجليز الذين فعلوا ذلك على حساب العرب ، واسكنوكم أرض العرب عدواناً وظلماً ، الانجليز الذين وضعوا السلاح في أيديكم لتقتلوا العرب وتتوسعوا على أرض العرب ، تمزقت صداقتهم بالنسبة اليكم في هذا الجيل . لماذا ؟ لانهم لم يحرقوا بيت هتلر وقتل ستة ملايين يهودي . ولكن اسمعوا أيها الصهيونيون أحلافكم القدماء وأعداءكم اليوم هذه الكلمات الحرة ، فانهم ولا شك يستحقون ما هو أكثر منها مذاقاً .

يقولون :

« سنعمل على مواصلة النضال فيما وراء حدود فلسطين . طبيعي أن نستمر على الهجرة غير المشروعة .

---

(١) نقلت الصحف أن مراسل وكالة « اليونيتد برس » وجه الى الارهابيين في فلسطين أسئلة تلقى عنها ردوداً تتطف منها هنا ما نعلق عليه . الاهرام ١/ ١ / ١٩٤٧

٣ — معنى هذا أيها العرب أن البحر ورائكم والعدو أمامكم ، اليهوديون يتطلعون الى ما وراء فلسطين . أم بعض يهودي في شرق الأردن يذكره ؟ ألم يخرج موسى بشعب اسرائيل من مصر ؟ أليس لليهود متجر في العراق ؟ أليس لهم صيرفي في الشام ؟ أليس لهم أقلام أو نصاب في لندن ؟ أليس لهم جالية صغيرة في اليمن ؟ أليس لهم بقية في بلاد العرب ؟ فكيف إذن لا يتطلعون الى ما وراء فلسطين .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

يقولون :

إذا هاجمنا العرب الذين لا نسعى الى قتالهم فسنحمي أنفسنا . وإذا شنوا هجوماً على المستعمرات اليهودية فسنرد عليهم بالحرب .

٤ — المعنى المفهوم من هذه العبارة ، على حد أسلوب الصراح ، أن العرب الدخلاء ، إذا هاجمونا نحن الاصلاء ، فسوف نشن عليهم وعلظهم شر قتال ، أما الهجوم على المستعمرات اليهودية فشأن الحرب الخرب تتخذها دولة الاقوين على أجساد العرب . أما القول بأنهم لا يسعون الى قتال العرب ، فمره خدعة مجربة ، مع أن هناك عدواً ثالثاً هو الانجليز ، فاذا تتلمس اليهوديون من الانجليز ، فالطبيعي أن يتحولوا الى العرب ليخرجوهم من أرضهم .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

***

ذوقوا فتنتكم . ذوقوا مرارة الانقسام والغفلة والتهاون . ذوقوا مرارة التواكل والبغضاء والتقاطع . ذوقوا ما تنتج صفائح الانفس وحفيظات الصدور .

من العرب الآن من يعامل يهودياً ، ومنهم من يمد يده لليهود ، ومنهم من يشارك اليهود ، ومنهم من يُشجّع اليهود على السيطرة على الصحافة العربية ، قلب هذه البلاد النابض ، ولسانها القائل ، وعينها المبصرة ، ووعيها الحي .

نعم . صادقوا اليهود ليخرجوكم من أوطنكم ، صادقوهم ليقتلوكم ، عاملوهم ليسرقوكم ، صاحبوهم ليضلوكم ، تقربوا بهم ليفسدوكم ، قدّموا اليهم أيديكم ليلقوا بكم في جهنم .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

***

ولنعد بعد ذلك الى فرنسا الغالية ، عدوة الاسلام وعدوة المسلمين ، فننقل شهادة واحد من أهلها . قال الاستاذ جوستاف لوبون [1]

(١) حضارة العرب ص ٩٣ الترجمة العربية للاستاذ زعيتر

« ويجمع أوثلثة الحضريون والأعراب على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم الشديد عليهم . ويتجلى الجزائري ، الذي نصفه باطلي المتردد المكسال القانع بالوضع المتزيد ، عالة ونفسه ، ويفتك في كل عصيان وتمرد الخلاص من حكم الأجنبي الذي فتح بلاده ، وقد تم إبادة عرب الجزائر بوسائل منظمة كالتي اتخذها الامريكيون لابادة اصحاب الجلود الحمر . ولكن الذي اعتقده هو أن الفرنسي لن يستطيع حمل الجزائري على التفرنس ، وان من المتعذر أن يسود السلام في قطر واحد بين العرب والفرنسيين الذين ينتسبون الى عرقين مختلفين . وقد صحت هذا الرأي الذي يجتنب تدوينه في الكتب عادة من جميع أولي البصائر في الجزائر ، واني أوافق عليه موافقة تامة » .

تحت أقبال جوستاف لوبون ووقع فيها بامضائه ، كما يقال في محاضر الشرطة .

وإذن ففي شمال أفريقية العربي المسلم معركة بين العرب وفرنسا ، معركة تحاول فيها فرنسا القضاء على أهل هذه البلاد بوسائل أمريكية استخدمت في القضاء على أصحاب الجلود الحمر . أما وأن فرنسا لا تستطيع اليوم ، وقد فتح العالم عينيه على مقاصدها الاستعمارية ، أن تمحو العرب من شمال أفريقية ، فهي تعمل على فرنستهم . وأول خطوة يخطوها مستبد أعمى في هذا السبيل هي القضاء على شيئين : اللغة والدين ، وبمعنى أفصح وأظهر : العربية والاسلام .

يأبناء العرب : ذوقوا فتنتكم . ذوقوا مرارة الفتنة . ذوقوا علقم ما أمددتكم به الباطنية والتصوف والزهد وخلع رداء القوة التي هي روح الاسلام ، وارتداء أثواب الضعف والمسكنة والذلة ، التي هي روح الوثنية .

يأبناء العرب : لقد آثمتم لكل معنى من معاني الضعف وثناً عكفتم عليه ، فطفحوا اليوم هذه الأوثان وتزقوا أغلالها وارموا في وجه كل فرنسي بحجر من أحجارها ، وفي وجه كل مستعمر يحاول أن يأكلكم بقذيفة من بقاياها . فان لم تفعلوا فأنتم المأكولون ، وأنتم المفرنسون وأنتم المكلنزون ، وأنتم المؤمركون ، وأنتم الخاسرون في الدنيا وفي الآخرة .

وإنما أخراكم هي ثمرة دنياكم ، والأمر بيدكم ، فاذا أردتم فان ارادة الله معكم ، واذا لم تريدوا فقد أتتكم آياته فنسيتموها ، وكذلك اليوم تنسون ويحل عليكم عذابٌ مقيم .

يأبناء العرب : اذكروا دائماً قولة عبد الحميد طاغية الترك : إن أودعه محطم دولتنا حرية دينية في قالب سياسي .

* * *

على أن فرنسا حتى بعد أن فتح العالم عينيه على مفاسدها الاستعمارية لا تزال تجري على سياسة الفرنسة في شمال أفريقية ، فأخذت تلوّح لاخواننا الشماليين باصلاحات خفة غنة ، لتصرفهم عن طلب الاستقلال وعن تولياها في « الفرنسة » ، وقد سمعت من ثقة أن مشاريع مشروعاً للتعليم كفيل بأن يفرنس شمال أفريقية في ربع قرن من الزمان ؛ يوضع الآن موضع التنفيذ الى جانب محاولات ترمي الى كف العيون عن النبع الحقيقي المبين لأهل هذه الأقطار العربية الصميمة .

ولقد نقرأ هنا هيئاً من تلك الدعاية الواسعة التي تنشرها فرنسا مظهرة حدبها الكاذب على أهل تلك البلاد بعد أن أمعنت فيهم قتلاً وخفراً وتجريحاً ، وبعد أن أنزلتهم أحط دركات الجهل والفقر والجوع ، وبعد أن نشرت في بلادهم شعور الخوف ، وأذاقتهم مرارة النقص في الأنفس والأولاد والثمرات [1] .

فقد نقلت الصحف دعاية فرنسية طريفة عريضة عن شمال أفريقية تحت عنوان « سياسة التقرب من المسلمين » ، وهي في الحقيقة الواقعة « سياسة فرنسة المسلمين في شمال أفريقية » ، وهي في مجموعها ضحك على ذقون أهل الاسلام واهل الشرق ، دعاية ظاهرها التقرب وباطنها الاستعمار ، وغرس كل سيئة من سيئات الخلق الفرنسي في نفوس هؤلاء العرب ، وانتلاع كل فضيلة شرقية ورثوها مع الأجيال الطوال . ولقد حدثني نائب من أهل تلك البلاد فقال : ان أصحاب المسؤولية من الفرنسيين ، وهم بالطبيعة أولئك الذين يعملون على فرنسة شمال أفريقية ، يعتقدون أن أكبر عقبة في سبيل سياستهم الاستعمارية هو « القرآن » . فانظر يربك ماذا تكون اذا صحت هذه الرواية ، وهي ولا شك صحيحة ، ان لم تكن صحتها آتية عن طريق النقل ، فإنها صحيحة من طريق الواقع .

(١) أنظر الاهرام في ٢٠ من يناير سنة ١٩٤٧ .

جاء في تلك الدعاية أن فرنسا عفت عن مئتين جزائريين ، وانها عينت وزيراً مفوضاً مسلماً ، وعينت مستشارين مسلمين ورئيساً مسلماً لمحكمة الجزائر ، وشرعت تدرّس الحضارة الاسلامية في السوربون ، وأخذت تنظم الضمان الاجتماعي وتنظر في مشكلة الايدي العاملة ، الى غير ذلك من الافك الذي يخجل أن يدعيه قاطع طريق لا حكومة متمدينة في القرن العشرين .

تمن فرنسا على أهل شمال أفريقية بذلك كأنما هي تقول لهم « أيها الأقنان » : أنظروا كيف أنزل عن كبريائي وأتدنى اليكم ، فأعين منكم وزيراً مفوضاً ، ومستشاراً مسلماً ، ورئيساً مسلماً لمحكمة !!!

اما اذا كان للخجل حرة ، فانها ولا شك لم تعرف وجه فرنسا .

* * *

ان مشكلة فلسطين ومشكلة شمال أفريقية هما أعضل مسائل الشرق والغرب . على أن ما في تينك المشكلتين من تعقد وجمود إنما هو راجع قطعاً الى أن أوربا تحاربنا حرباً دينية في قالب سياسي . وإلاّ فأين الحق الذي ينادي به مُبرّجو السياسة الاوربية والاميركية ، وأين حق الامم ، وأين تقرير المصير ، وأين حرية الشعوب الصغيرة ، وأين ضمان حقوقها ؟ أين كل هذا اذا كانت أبسط الحقوق الجلية الظاهرة تصيح بين أيدي هؤلاء مشكلات أعقد من ذنب الضب.

لقد خرج العالم من الحرب الاخيرة وقد طبقت آفاقه الدعايات صارخة بأن العدل قد محق القوة . ولكن لم يكد السلم ينشر رواقه حتى أننا من أصحاب العدل وأصحاب الحرية الذين هدهرنا آذاننا طوال سنين بأنهم حفظة العدل والقوامين على الحرية ، إنهم انما يتبعون موحيات القوة ويتكلمون بلسان القوة ، وها هي ذي جيوشهم يجتاح بها الشرق وأسلحة فرنسا تروح وتغدو عبر أصيا لتقتل رجال الشعوب الصغيرة في أندونسيا والهند الصينية ومدغشقر باسم الحضارة التي تعمل على فرنسة كل شبر من أرض تطأه قدم فرنسية إذا كان المبدأ الاساسي في العدل الدولي هو ذلك المبدأ الذي قرره ميثاق الاطلنطي

إذن يكون لكل دولة من الدول الحق في أن تتناول حرة طليقة في سبيل تقرير السياسة الخاصة بها من غير أن تتعرض لعدوان دولة او دول اخرى . وهذا المبدأ إن كان من المبادىء المقررة في القانون الدولي ، إلا أنه قد طار فوق أكثر من أن تسمح المذكرة الاساسية التي قامت عليها هيئة الامم المتحدة .

وربك ما هو العدوان ؟ هو ان تتذرع دولة بالقوة لارغام دولة اخرى على الخضوع لامر لا تريده ، أو اتخاذ موقف تأباه أو يتعارض مع مصالحها . هو على الجملة تدخل بصورة من الصور في أمور دولة أخرى أو شعب يريد أن يكون ذا دولة تدخلاً تعززه القوة .

نضرب بذلك مثلاً دعوى الصهيونية في فلسطين . قال من الاشياء المسلمة في العرف الدولي أن طول العهد بامتلاك بقعة من الارض ، يرتق حق أية أمة في امتلاك البقعة التي تسكنها . وإذا كانت هذه الحجة هي حجة كل قانون دولي او غير دولي يستند اليها شعب من الشعوب في امتلاك الارض التي يسكنها ، كان حق العرب في فلسطين واضح لا يحتاج إلى تلك المؤتمرات التي لا ترمي إلا إلى انتزاع فلسطين من العرب بوثيقة يوقع فيها العرب لصالح الصهيونيين ، صنائع بريطانيا .

* * *

إذا كان ما يدعي الصهيونيون من حق في فلسطين راجع إلى وثائق تاريخية ، فان حق العرب يرجع إلى أكثر من ألف سنة ، وحق اليهود يرجع الى ذكريات كادت تمحّي عليها أحداث الزمن . وإذا كان حقهم راجع إلى وعد بلفور ، فان هذا الوعد أشنع عدوان يذكره تاريخ البشرية جميعاً .

إن واجب كل عربي واضح لا يحتاج الى بيان . واجب يحفز كل عربي الى الجهاد بكل ما أوتي من قوة ومال وجاه حتى يستقر حق العرب في فلسطين ، ويعترف العرب أن الشرق يأبى الآن أن يؤكل كما أوكل في الايام السوالف .

اسماعيل مظهر